الفقه وشدة الحجاب ، كما قال تعالى ثَقُلَتْ فى السموات والأرض، أى خَفِىَ علمها يعنى الساعة ، فثقلت عليهم فسمى ما خفى ثقيلا والله أعلم .

الفصل التاسع عشر

كتاب فيه ذكر الجهر بالقرآن وما فى ذلك من النيات وتفصيل حكم الجهر والإخفات

روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فضلُ قراءة السرّ على قراءة العلانية كفضل صدقة السرّ على صدقة العلانية، وفى لفظ آخر الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسِرّ به كالمسِرّ بالصدقة. وفى الخبر العام يفضُـل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا. وفى مثله من العموم خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى. وفى الخبر لا يجهر بعضكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء. وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقرآن فى صلاته، وكان حسن الصوت، فقال لغلامه برد – إذهب إلى هذا المُصلّى فمره أن يُخفض من صوته ، فقال الغلام إن المسجد ليس لنا وإن للرجل فيه نصيبا، فرفع سعيد صوته فقال يا أيها المُصلّى إنْ كنت تريد الله عز وجل بصلاتك فاخفض صوتك، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيأً، قال فسكت عمر وخفف ركعته . فلما سلّم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة. وعلى ذلك فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع جماعة من أصحابه يجهرون بالقراءة فى صلاة الليل فيصوّب ذلك لهم ويسمع إليهم . وقد أمر بالجهر فيما روى عنه إذا قام أحدكم من الليل يصلى فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعُمّار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته . ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثلاثة من أصحابه فى الليل مختلفى الأحوال، منهم من كان يُخافت وهو أبو بكر رضى الله عنه، فسأله عن ذلك فقال إن الذى أناجيه هو يسمعنى ، ومنهم من كان يجهر وهو عمر رضى الله عنه فسأله عن ذلك ، فقال أوقظ الوسنان وأزجر الشيطان ، ومنهم من كان يقرأ أياً من هذه السورة ومن هذه السورة وهو بلال ، فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب ، فقال كلكم قد أحسن وأصاب، فنقول والله أعلم إن المخافتة بالقراءة أفضل إذا لم تكن للعبد نية فى الجهر، أو كان ذاهباً عن الهمة والمعاملة بذلك ، لأنه أقرب إلى السلامة وأبعد من دخول الآفة . وإن الجهر أفضل لمن كان له نية فى الجهر ومعاملته

مولاه به، لأنه قد قام بسُنّة قراءة الليل، ولأن المخافت نفعه لنفسه، والجهر نفعه له ولغيره. وخير الناس من ينفع الناس، والنفع بكلام اللّه عز وجل أفضل المنافع ، ولأنه قد أدخل عملا ثانيا يرجو به قُربة ثانية على عمله الأول فكان فى ذلك أفضل .

وليجعل العبد مفتاح درسه أن يقول أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون . وليقرأ قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد قبلها . وليقل عند فراغه من كل سورة صدق اللّه وبلّغ رسول اللّه . أللّهم انفعنا به وبارك لنا فيه . الحمد للّه رب العالمين. أستغفر اللّه الحىّ القيوم .- ومن حفظ جوارحه وقلبه عن المنهى فقد عمل بالقرآن إلى خاتمته، لأنه مقسط على جملة العبد وجوارحه جملة .

وفى الجهر بالقراءة سبع نيّات، منها الترتيل الذى أُمر به ، ومنها تحسين الصوت بالقرآن الذى نُدب إليه فى قوله صلى اللّه عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم ، وفى قوله ليس منا من لم يتغن بالقرآن ، أى يُحسن به صوته ، وهو أحد الوجهين وأحبهما إلى أهل العربية . والوجه الآخر أى من لم يستغن به من الغُنية والاكتفاء ، وقد يقال من هذا الوجه يتغانى به . ومنها أن يُسْمِع أذنيه ويُوقظ قلبه ليتدبر الكلام ويتفهم المعانى، ولا يكون ذلك كله إلاّ فى الجهر. ومنها أن يطرد الشيطان والنوم عنه برفع صوته . ومنها أن يرجو بجهره يقظة نائم فيذكر اللّه عز وجل فيكون هو سبب إحيائه . ومنها أن يراه بطّال غافل فينشط للقيام ويشتاق إلى الخدمة فيكون معاوناً له على البرّ والتقوى . ومنها أن يُكثر بجهره تلاوته، ويدوم قيامه على حسب عادته للجهر ففى ذلك كثرة عمله ، فإذا كان العبد معتقداً لهذه النيات، طالباً لها ، ومتقرباً إلى اللّه سبحانه وتعالى ، عالماً بنفسه مصححاً لقصده ، ناظراً إلى مولاه الذى استعمله فيما يرضاه ، فجهرُه أفضل لأن فيه أعمالا، وإنما يفضل العمل بكثرة النيات فيه ، وارتفع العلماء وفضُلت أعمالهم بحسن معرفتهم بنيات العمل واعتقادهم لها ، فقد يكون فى العمل الواحد عشر نيات يعلم ذلك العلماء فيعملون بها ، فيعطون عشرة أجور . وأفضل الناس فى العمل أكثرهم نية فيه، وأحسنهم قصداً وأدباً . وفى بعض التفاسير فى قوله عز وجل وأما بنعمة ربك فحدث قال قراءة القرآن . وفى الخبر مَنْ استمع إلى آية من كتاب اللّه عز وجل كانت له نوراً يوم القيامة ، وفى خبر آخر كُتب له عشر حسنات .

والتالى شريك المستمع فى الأجر لأنه أكسبه ذلك . وقال بعضهم للقارىء أجر وللمستمع تسعة أجور ، وكلاهما صحيح لأن كل واحد منهما على قدر إنصاته ونيته ، فإذا كان التالى مكسبا لغيره هذه الأجور فإن له بكل أجر أكسبه إياه أجرا يكتسبه ، لقوله صلى اللّه عليه وسلم الدّال على الخير كفاعله ، سيما إذا كان عالماً بالقرآن ، فقيهاً فيه ، فيكون مقراه ووقوفه حجة وعلماً لسامعه . وفى الخبر أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان ينتظر عائشة رضى اللّه عنها فابطأت عليه فقال ما حبسك ، فقالت يا رسول اللّه كنت استمع قراءة رجل ما سمعت صوتا أحسن منه ، فقام صلى اللّه عليه وسلم حتى استمع إليه طويلا ثم رجع ، فقال هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد للّه الذى جعل فى أمتى مثله. واستمع أيضا ذات ليلة إلى قراءة عبد اللّه بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضى اللّه عنهم فوقفوا طويلا ، ثم قال من أراد أن يقرأ القرآن غضّا كما أُنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عَبْد. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لابن مسعود إقرأ فقال يا رسول اللّه اقرأ وعليك أُنزل؟ فقال إنى أحب أن أسمعه من غيرى، فكان يقرأ وعينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تفيضان، وذلك عند قوله فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا . واستمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى قراءة أبى موسى فقال لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير داود، فبلغ ذلك أبا موسى، فقال يا رسول اللّه لو علمتُ أنك تسمع إلىّ لحبّرت لك تحبيرا . وكان ابن مسعود يأمر علقمة بن قيس أن يقرأ بين يديّه، فيقول له رتّل فداك أبى وأمى، وكان حسن الصوت بالقرآن. وفى الخبر كان أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن. وقد كان عمر يقول لأبى مسعود رضى اللّه عنهما ذكّرنا ربّنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط، فيقال يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة، فيقول أولسنا فى صلاة ، فكأنه يتأوّل قوله عز وجل ولذكْر اللّه أكبر.

وقال بعض عبّاد البصريين لمّا وضع بعض البغداديين كتابا فى معانى الرياء ودقائق آفات النفوس، قال لقد كنت أمشى بالليل أسمع أصوات المتهجدين كأنها أصوات الميازيب، فكان فى ذلك أنس وحث على الصلاة والتلاوة، حتى جاء البغداديون بدقائق الرياء وخفايا الآفات فسكت المتهجدون، فلم يزل ذلك ينقص حتى ذهب وانقطع وتُرك إلى اليوم.

فإنّ لم يكن للتالى نية في شئ مما ذكرناه، وكان ساهيا غافلاً عن ذلك، وكان واقفا مع شئ

obeikandi.com

من الآفات، أو لمح فى قلبه شخصاً، أوساكن ذكْر هوى، فقد اعتلّ، فعليه أن يحتمى الجهر، فإن جهر على ثقل قلبه فسُد عمله لاستكنان الداء فيه، وكان إلى النقصان أقرب، ومن الإخلاص أبعد، فعليه حينئذ بالإخلاص فهو دواؤه يعالج به حاله، فإنه أصلح لقلبه، وأسلم لعمله، وأحمد فى عاقبته. وقد يكون العبد واجداً لحلاوة الهوى فى الصلاة والتلاوة، وهو يظن أن ذلك حلاوة الإخلاص، وهذا من دقيق شأن الشهوة الخفية ولطيف الانتقاص، وقد يلتبس ذلك علي الضعفاء ولا يفطن له إلا العلماء. وإنما يجد حلاوة الإخلاص الزاهدون فى الدنيا وفى مدح الناس لهم به، ويتلذذ بنصح المعاملة وصدق الخدمة المحبون لله عز وجل، الخائفون منه، واعتبار فقد ذلك بأحد شيئين، سقوط النفس باستواء المدح والذم، وهذا حال في مقام الزهد أو الخلو من القلب بشهادة اليقين، وهذا في مقام المعرفة. وفى هذين المقامين يستوى السر والعلانية، وقد تكون العلانية أفضل لأئمة التقوى والعدل.

وحُدّثتُ عن رجل من أهل الخير قال، كنت أقرأ فى السحر، فى غرفة لى شارعة، سورة طه، فلمّا ختمتها غفوت بعدها غفوة فرأيت شخصا نزل من السماء بيده صحيفة بيضاء فنشرها بين يدّى، فإذا فيها سورة طه، وإذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة إلا كلمة واحدة فإنى رأيت مكانها محوا، ولم أر تحتها شيأ فغمّنى ذلك، فقلت قد والله قرأت هذه الكلمة ولم أر لها ثوابا ولا أراها أُثبتت، فقال الشخص صدقت قد قرأتها وكتبناها لك إلا أنأسمعنا مناديا ينادى امحوها وأسقطوا ثوابها فمحوناها، فبكيت فى منامى وقلت لِمَ فعلتم ذلك، قالوا مرّ رجل فرفعت صوتك بها لأجله فمحوناها. وقد روينا أن النبى صلّى الله عليه وسلم سمع رجلا يجهر بقراءته فناداه يا فلان أسمِعْ اللّه ولا تُسمعنى.

واعلم أن السمعة مقرونة بالرياء، ومحكوم لها بحكمه من فساد العمل ونقصان العامل، وهى مأخوذة من السمع. كأن العبد يُسمع بعمله غير الله عز وجل، ويحب أن يُسمع به مخلوقا ليمدح به، لغلبة هواه وضعف نفسه، فيكون قد أشرك فى عمله غير الله عز وجل، فيبطل عمله لجهله بالتوحيد، إذ لو علم يقينا أن لانافع إلاّ الله عز وجل، ولا ضار ولا مُعطى ولا مانع إلاّ إياه خلص له توحيده من الشرك، فخلص له عمله من الرياء. وكذلك الرياء مأخوذ من رأى العين، فالسمعة هى بمعناه.

وفى الخبر لا يقبل الله عز وجل من مُسْمِع ولامُراء. وفي خبر آخر من سمع سمع الله به، ومن راءى راءى الله به وصغّره وحقّره، فأمّامن كانت له نية صالحة فى أن يُسمع أخاه كلام الله

ليتعظ به ويتدبره، أو ينتفع باستماعه ويتذكر به، فليس داخلاً في السمعة لوجود حُسن النية وصحة القصد، ولفقد اقتران الآفة لإرادة طمع عاجل من مدح أوغرض دنيا، كما قال أبو موسي لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لو علمت أنك تسمع لحبّرته لك تحبيرا، فلم ينكر عليه، لأنه نو نيّة فى الخير وحُسن قصدٍ به. وقال للآخر الذى رفع صوته بالآية أسمعْ اللّه عز وجل ولاتسُمعنى، فأنكر عليه لماّ شَهد السمعة فيه. وقد روينا أنه صلّى اللّه عليه وسلم مرّ برجل يُظهر التنوّه والوجل، فقال من كان معه، يارسول اللّه، أتراه مُرائيا، فقال لا بل أوّاه منيب.

واعلم أن الأكل والنوم على السلامة والصدق أفضل فى الحال، وأرفع فى المقام، وأحمد فى المآل، من القيام والصيام على يسيرٍ من التصنع والتزين للخلْق. ومعرفة هذا والقيام به هو موضع علم العلماء باللّه عز وجل. وحُدّثنا عن الحسن البصرى قال تُفْقَد الحلاوة فى ثلاث، فإن وجدتها فابشر وامض لقصدك، وإن لم تجدها فاعلم أن بابك مغلق: عند تلاوة القرآن، وعند الذِكْر، وفى السجود. وزاد غيره وعند الصدقة وبالأسحار.

وقراءة القرآن فى المصحف أفضل من قراءته عن ظهر قلب. يقال الختمة بسبع ختم، لأن النظر فى المصحف عبادة. وكان كثير من الصحابة والتابعين يقرؤن فى المصحف ويستحبون أن لا يخرجوا يوماً إلاّ نظروافيه . وخرق عثمان مصحفين من كثرة درسه فيهما.

الفصل العشرون

فى ذكر إحياء الليالى المرجوّ فيها الفضل، المستحب إحياؤها، وذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة

ويستحب إحياء خمس عشرة ليلة فى السنة، خمسٌ منها في شهر رمضان، وهى وتر ليالى العشر الأخير منه، وليلة سبع عشرة من رمضان هى صبيحة يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، فيه كانت وقعة بدر، وكان ابن الزبير يذهب إلى أنها ليلة القدر، وأما التسعة الأخر فأوّل ليلة من شهر المحرم، وليلة عاشوراء، وأوّل ليلة من شهر رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه وفيها أُسْرِىَ برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وليلة المعراج، وليلة عرفة، وليلة العيدين، وليلة النصف من شعبان وقد كانوا يصلون فى هذه الليلة مائة ركعة بألف مرة قل هو اللّه أحد، عشراً فى كل ركعة، ويسمّون هذه الصلاة صلاة الخير، ويتعرفون بَرَكَتها ويجتمعون فيها، وربما صلّوها جماعة. وروينا عن الحسن قال حدثنى ثلاثون من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه وسلم